

تأثير البيئة والصناعة في الأدب

لمحمود بن محمد الجونفوري^(١)

والارتباطات الخياليات بالأسباب الخارجية الاتفاقية من صناعة أو عرف عام ، فتفاوتت بالأمم وليست منضبطة انضباط الارتباط العقلي والوهمي بل كثيراً ما تقارن صورة صورة في خيال أرباب صناعة خاصة أو أهل عرف لكون صناعتهم أو عرفهم جامعاً بينهما ولا تقارنهما في خيال أصحاب صناعة أخرى أو أهل عرف عام آخر كالثوب يقارب الدن^(٢) ،

(١) الشيخ الإمام العالم الكبير محمود بن محمد العمري الجونفوري أخذ نوابغ الهند ، لم يكن في زمانه مثله في العلوم الحكمية والمعارف الأدبية . وُلد بجونفور سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة ، ونشأ في مهد جده شاه محمد ، وقرأ عليه الكتب الدراسية ثم لازم الشيخ الأستاذ محمد أفضل بن حمزة العثماني الجونفوري وأخذ عنه وأقبل على المنطق والحكمة إقبالاً كلياً حتى برز فيها وبرع أقرانه وله سبع عشرة سنة . وكان غاية في الذكاء والفطنة وسيلان الدهن وقوة الحفظ والإدراك . كان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفهم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم . قال السيد غلام علي البلجرامي في سبحة المرجان: لا ريب أنه لم يظهر بالهند مثل فاروقيين: أحدهما في الحقائق وهو مولانا الشيخ أحمد السرهندي رحمه الله ، والثاني في العلوم الحكمية والأدبية وهو الملا محمود الجونفوري . وله مصنفات عديدة أشهرها: الشمس البازغة في الحكمة ، والفرائد شرح الفوائد؛ وهذا الفصل مأخوذ منه . وتوفي لتسع خلون من ربيع الأول سنة اثنتين وستين وألف بمدينة جونفور .

(٢) الراقود العظيم لا يقعد إلا أن يحفر له ج دنان .

والعفص^(١) في خيال الصباغ دون الخياط ، والتمر قد يقارن الجراد في خيال العرب دون الهند. فربما يجيء الوصل لوجود الجامع الخيالي بحسب صناعة المتكلم أو المخاطب أو عرفه فيتلقاه العارف بالقبول وإن وقف له الجاهل موقف النكير فلا يستنكر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] ، إلا من يجهل أن الخطاب مع العرب وما في خيالهم إلا الإبل ، وأرض ترعاها ، وسماء تسقيهم وإياها ، وجبال هي معاقلهم^(٢) عند شن الغارات. فإن العرب أعني أهل الوبر منهم لما لم يكونوا متمدين حتى تيسر لهم التجارات التي إنما تريح وتروج في المدن، والصناعات التي إنما تتعلم وتنتفع بها غالباً فيها ولا كانت أراضيهم جيدة الإنبات ، طيبة النبات ، غزيرة^(٣) الحياض والآبار ، كثيرة العيون والأنهار حتى يتمكنوا من الزراعة والفلاحة، لا جرم نيطت معيشتهم بالمواشي. ولما كانت الإبل أجلها منفعة وأقلها مؤنة عقدت بها همهم فهي أول ما هو مركز في ضمائرهم مستحضر في خواطرهم. ثم لما كان بقاؤها والانتفاع بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر، وأهم مسارح^(٤) نظرهم السماء، ثم لا يضطرارهم إلى التحصن لشن الغارات بينهم وشيوع الوقاعات فيهم إذ لم يكونوا متدينين في الجاهلية بشريعة تزجرهم عن المفسدة ، ولا منقادين لسياسة تحجز^(٥) عن الفتنة كانت أعناق قلوبهم ممتدة إلى الجبال التي هي معاقلهم وحصونهم. وإذا تعذر طول مكثهم بمواشيهم في منزل كان الثقل من أرض تمتعوا بمائها ومرعاها إلى أرض معشبة^(٦) سواها من عزم الأمور

(١) دواء معروف يقال له بالفارسية مازو.

(٢) جمع منقل الملبجأ.

(٣) كثيرة.

(٤) هي المواضع التي يجول فيها النظر.

(٥) تمنع.

(٦) كثيرة العشب.

عندهم . فلذلك أمروا في مقام الاستدلال بالأثر على المؤثر بالنظر في أقرب الصور حضوراً عندهم فالأقرب على الترتيب ، ولك أن تقول أقرب الصور عندهم هي الإبل . ثم لما كانت السماء والجبال والأرض مستحضرة عندهم بعدها انتقل إليها من أعلاها إلى أسفلها بالترتيب ، وإذ قد عرفت عدم انضباط الخيالات واختلافها باختلاف العادات مع ابتناء ما هو من معضلات^(١) مباحث الفن أعني معرفة حسن الوصل وقبحه على معرفتها جداً علمت احتياج صاحب المعاني إلى بذل الجهد في التدرّب^(٢) فيها ، ولها في فن البلاغة منافع أخرى مهمة فإن التبخر في التشبيهات والاستعارات وغيرها من شعوب الكلام أيضاً مبني على معرفة الصور الخيالية ووضوحها وخفائها وتناسبها وتجانسها .

ولا بأس في أن نملي عليك من ملح الأخبار والأشعار ما يفيدك زيادة في الاستبصار :

يحكى أن صاحب سلاح ملك وصائغاً وصاحب بقرة ومعلم صبية^(٣) انتظمهم سلك طريق فركبوا مركب الجد ووصلوا سير النهار بسير الليل الأليل^(٤) . فبينما هم في وحشة الظلام ومقاساة خوف الضلال والزلل أنسهم البدر بوجهه الكريم وأضاءت لهم أنواره كل مظلم بهيم^(٥) ، فأفاض كل منهم في ثنائه وترشيح بأحلى ما في إنائه فشبهه السلاحى بالترس المذهب يرفع عند الملك ، والصائغ بالسبيكة من الإبريز تفتت عن وجهها البوتقة^(٦) ، والبقر بالجبين الأبيض يخرج من قلبه

(١) مشكلات .

(٢) أي التعود .

(٣) جمع صبي .

(٤) أي الطويل الشديد السواد .

(٥) أي الأسود .

(٦) الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ المعدن .

طرياً^(١) والمعلم برغيف أحمر يصل إليه من بيت ذي مروءة .

ويحكى عن وراق يصف حاله : عيشي أضيّق من محبرة^(٢) ، وجسمي أدق من مسطرة^(٣) ، وجاهي أرق من الزجاج ، وحظي أخفى من شق القلم ، وبدني أضعف من قصبه ، وطعامي أمر من العفص ، وشرابي أشد سواداً من الحبر^(٤) .

وسوء الحال ألزم بي من الصمغ ، وروى لحداد :

مطارق^(٥) الشوق في قلبي لها أثر يطرقن سندان قلب حشوه فكثر
ونار كير الهوى في القلب مضرمة ومبرد^(٦) الشوق لا يُبقي ولا يذر

ولطيب :

شربت لكم في القلب مني شربة لتظفي بها ناري ويهدأ^(٧) وساوسي
بعناب بين مع سبستان سلوة وإجاص هجران وتبريد آنس
وصفّيته حتى إذا عمل الدواء طرحت هواكم بين خمس مجالس^(٨)

(١) غضاً لينا .

(٢) الدواة .

(٣) ما يسطر به الكتاب .

(٤) المداد .

(٥) جمع مطرقة آلة معروفة للحدادين يضربون بها على السندان ، السندان هو ما يطرق عليه الحديد .

(٦) آلة للحدادين يقال له بالفارسية سوهان .

(٧) يسكن .

(٨) قال صاحب الفرائد في حاشيته عليها يخاطب الأحبة ويخبرهم عن ذهاب هواهم عن قلبه وتسليه عن حبههم فيقول : إنني عالجت قلبي بدواء مسهل يسهل الأخلاط الرديئة والمواد الفاسدة من وساوس الهوى وهواجس الصبي فركب الدواء من العناب والسبستان والإجاص والتريد فإن ذلك دواء معروف لتلين الطبيعة وإسهال المواد الرديئة من غير عنف ، وفسر العناب بالبين أي الفراق وأراد به بعد المسافة فأضاف العناب إلى البين إضافة بيان على نحو لجين الماء وذلك لأن البين يورث فتوراً في الحب وسلواً عن الحبيب ، وكذلك أضاف السبستان إلى السلوة =

وقال بعضهم بعد ما أنشد للأمير سيف الدولة في وصف قوس قزح:

وساق صبيح الصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض^(١)
 يطوف بكأسات العقار^(٢) كأنجم فما بين منقض علينا ومنقض
 وقد نشرت أيدي الجنوب^(٣) مطارفاً^(٤) على الجود كنا^(٥) والحواشي على الأرض
 يطرزها قوس السحاب بأحمر على أصفر في أخضر تحت مبيض
 كأذيال خود^(٦) أقبلت في غلائل^(٧) مصبغة والبعض أقصر من بعض^(٨)

إن هذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها للسوقة^(٩)

= والإجاص إلى الهجران وأراد به قطع الألفة وترك الصحبة لا بعد المسافة حتى لا يلزم التكرار ، وأضاف التريد إلى الأنس أي المصاحب الذي هو غيرهم يؤنسه ويتسلى بصحبته عنهم؛ ثم قال: لما عمل الدواء طرحت هواهم بين خمس مجالس كما يطرح الثقل والأخلاق بعد المسهل بين خمس مجالس في الخلاء أي خمس مرات.

- (١) النوم.
- (٢) الخمر.
- (٣) بالفتح الريح التي تقابل الشمال.
- (٤) جمع مطرف بكسر الميم وضمها رداء من خز ذو أعلام.
- (٥) جمع أدكن من الدكنة وهو لون يضرب إلى السواد.
- (٦) المرأة الشابة.
- (٧) جمع غلالة شعار يلبس تحت الثوب.
- (٨) يقول إن الساقى لما كان في سنة الغمض وطاف بكأسات العقار في تلك الحالة لم يتمالك عن كأسات العقار المتلألئة كالأنجم فمنها ما كانت ساقطة من يده كالكوكب المنقض من السماء مجتمعاً ومنها ما كانت متفرقة رشحاتها كالكوكب المتفرق نوره في الجو.
- (٩) الرعية.

وبالجملة فإن تخالف الأنام في شجون^(١) الكلام يبتنى غالباً على اختلاف الصور في خزائن خيالاتهم غيبة وحضوراً وخفاء وظهوراً وابتلافاً واختلافاً لتباين مذاهبهم واختلاف مشاربهم.

ومن ههنا ترى الشعراء من العرب العرباء قلما يجاوزون ذكر النوق والجمال والأدوية والجبال والبطائح^(٢) والرمال والدمن^(٣) والأطلال^(٤) ويلوح من أشعارهم آثار الجذب والجوع وحرش الضب واليربوع واستيطان المفازة والبوادي والاستثناس بالوحوش الصوادي^(٥) لكن الله تعالى لئن لهم الحديد وهون عليهم الشديد فترى كلامهم أسهل من الماء مع أنه أجزل من الصخرة الصماء وتخاله مع صعوبة أسلوبه ووعورة شعوبه أرق من دمع المستهام^(٦) وأروق من راح رقرق بماء الغمام.

وأما المولدون فلما نشؤوا في الحضارة وناموا أولي الإمارة وذاقوا حلاوة العيشة وغطفها وشاهدوا زهرة الدنيا وخرفها وشحوا عباراتهم بالجواهر والدرر وضمخوا استعاراتهم بالمسك والعنبر وتفرجت في حدائق أشاعرهم الأنوار والأزهار وتجتجثت^(٧) في رياض حوارهم العيون والأنهار وحسنت أبيات قصائدهم بالديباج والوشي وزينت خرائد مقاصدهم بالحريز والحلي ولذلك راجت بضاعتهم عند المتأخرين من الرواة والأدباء فأحلوها المقام العالي وربحت لدى المتظرفين من الولاة والأمراء فشروها بكل ثمن غالٍ وأما الناقد البصير الماهر النحرير فلا يغتر

(١) جمع شجن بالتحريك الغصن ومنه الحديث ذو شجون.

(٢) جمع بطحاء مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.

(٣) جمع دمنة وهي آثار الدار.

(٤) جمع طلل وهو الشاخص من الآثار.

(٥) جمع صادية من الصدى وهو العطش.

(٦) أي الهائم.

(٧) أي تسلسلت.

بزبرجهم ولا ينخدع بيهرجهم ولقد أنطق الله تعالى المتنبى بالحق حيث
قال:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب^(١)

* * *

(١) الفرائد.